قبائل البجة في شرق السودان في مدونات الرحالة والحجاج

د. ربيع محمد قمر الحاج

الحجاج والرحالة المسلمون وإسهاماتهم في الدعوة:

لم تكن الجهود التي بذلها الحجاج والرحالة في مجال نشر الدعوة الإسلامية تقل أهمية عن الجهود التي بذلها الدعاة في المجال هذا فبالرغم من أن الحجاج والرحالة كانوا ينظرون لبلاد البجة بعامة ولموانئها لخاصة على اعتبار أنها تمثل منطقة أو نقاطاً يعبرون منها إلى بلاد الحجاز، إلا أن الجهود التي بذلوها كانت جهوداً كبيرة ساهمت بشكل واضح في تحويل البجة للإسلام.

وقد ساعد في تحقيق تلك الجهود عدد من العوامل المهمة منها ما يلي:

أولاً: ارسال العباسيين لعدد من الحملات لتأمين الطريق ابتداءً بحملة بن **الحجاب** سنة ١٠٥ هـ [١]، وانتهاء بحملة العمري سنة ٢٥٥ هـ [٢].

ثانياً: الاستقرار الأمني النسبي الذي طال المنطقة الممتدة من نهر النيل غرباً حتى سواحل البحر الأحمر شرقاً ؛ نتيجة للاتفاقيات التي وقعت مع ملوك البجة من جهة ومع ملوك النوبة في وادي النيل من جهة أخرى، والتي تضمنت في بعض بنودها شروحاً ألزمت البجة بعدم التعرض للحجاج وغيرهم بأي نوع من الأذى، سواءً أكان ذلك في البر أو في البحر، وألزمتهم كذلك بحفظ طريق القوافل الممتد من أسوان وقوص في جنوب مصر والموانىء البجاوية في سواحل البحر الأحمر مثل عيذاب وسواكن[٣].

ثالثاً: أَمرْ الخليفة المتوكل بتولية طريق الحج لأحد قواده يؤكد حرص العباسيين على فرض نفوذهم وحمايتهم لرعاية الموجودين في هذه المنطقة، سواءً أكان هولاء الرعايا مستقرين أو عابرين [٢]، وهذا الأمر جعل الحجاج يشعرون أنهم تحت رعاية أمينة جادة في حمايتهم وضمان سلامتهم.

رابعاً: قرب المسافة بين الموانىء البجاوية وبين موانئ الحجاز، وخلو المناطق الساحلية المتاخمة للموانئ البجاوية من العوائق الطبيعية أو قلتها بتعبير أدق.

خامساً: التعاون والتداخل الذي حدث بين البجاويين وبين العناصر العربية المهاجرة وانعكس ذلك بشكل عام على استقرار المنطقة.

هذا ويمكن تصنيف الجهود التي بذلها الحجاج والرحالة إلى جهود مباشرة وأخرى غير مباشرة. فمن جهودهم المباشرة تأثيرهم الواضح في البجاويين الذين كانوا يعملون معهم كأجراء لحراسة القوافل التجارية، ذلك أن المدة التي يمضيها الرحالة الحجاج في الطريق من مدن جنوب

---

١. ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٨٩.

٢. البلوي: سيرة أحمد بن طولون، ص ٦٣.

مصـر حتـى مـوانئ البجـة كانـت تصـل إلـى خمسـة عشـر يومـاً [٣] وأحيانـاً إلـى أكثـر مـن ذلـك [٤][١]، ممـا أتـاح الفرصـة لهـؤلاء الحـرس للإسـتفادة وللتعـرف علـى الحجـاج المسـافرين فـي هـذه القوافـل، كمـا أن ذلـك قـد أتـاح فرصـاً كبيـرة لهـؤلاء الحجـاج لـدعوة هـؤلاء الحـراس للإسـلام، ولا سـيما أن الحجـاج كـانوا يـدركون أن بعضـهم قريـب مـن الإسـلام بسـبب بـدواتهم وبقـائهم علـى فطرتهم [٢].

فكانوا يدعونهم أحياناً دعوة مباشرة للدخول في الإسلام، أحياناً يعتنقه البجاويون من تلقاء أنفسهم ؛ بسبب تأثير الحجاج غير المباشر عليهم، ذلك أن الحجاج كانوا أحياناً يقومون بمناقشة بعض القضايا الخاصة بتعاليم الإسلام خصوصاً ما يتعلق منها باحكام الحج والعمرة، كما كانوا يقومون بحفظ وتسميع القرآن الكريم، خصوصاً أن عدداً كبيراً منهم كان يستفيد من مسافة الطريق، فيبدأ في حفظ القرآن الكريم وتجويده ومراجعته [٣]. كما كان بعضهم الآخر يعمد إلى حاجٍ آخر فيطالع معه في كتاب أو يناقشه في بعض القضايا الفقهية أو الفكرية أو الأخلاقية التي يتطرق إليها الكتاب، وقد كان يعينهم في ذلك أن أصحاب القوافل من البجة وغيرهم . تسهيلاً وتيسيراً للحجاج، كانوا يعمدون إلى جملين من الجمال فيوصلون بينهما بـ" الحبال الوثيقة "، فتوضع على البعير ولها أذرع قد صفت بأركانها، يكون عليها مظلة، فيكون الراكب فيها مع عديله [٤] فيكون في أمان من لفح الهاجرة ويقعد مستريحاً في وطائه ومتكئاً، ويتناول مع عديله ما يحتاج إليه من زاد وسواه، ويطالع متى ما شاء المطالعة في مصحف أو في كتاب " [١]٥. وبلا شك فإن هذا النشاط قد أثر في نفوس كثير من هؤلاء البجاويين الذين كانوا يعملون في خدمة الحجاج والرحالة، ولا سميا أن مسافة الطريق تعتبر عاملاً مساعداً في ذلك .

على أن أكثر ما استفاده البجة بشكل مباشر من الرحالة والحجاج هو ما تحقق للساكنين في المدن من كسب ثقافي، وحضاري إبان إقامة هؤلاء الحجاج في الموانىء البجاوية بانتظار السفر إلى ميناء جدة، حيث كانت تتفاوت **مدد** إقامتهم وتصل أحياناً إلى سنة كاملة في انتظار إقلاع السفن من عيذاب أو من سواكن [٢]، لأسباب طبيعية تتمثل في حركة الرياح في غالبها، فكان الحجاج يعقدون حلقات للعلم تتناول في غالبها مسائل الحج والعمرة، فتأثر بها البحاويون الذين كانوا يقيمون معهم كثيراً، ولا سيما أن بعض هولاء الحجاج كان على دراية وعلم بالأحكام التي تتعلق بالحج والعمرة . كما أشرنا سابقاً.

---

[١]. ابن الوردي: فريدة العجائب، ورقة ٢٣.

٢. القاسم التجيبي: مستفاد الرحلة، ص ٢٠٩.

٣. ابن جبير: الرحلة، ص ٦٥

٤. العديل: الراكب مع الانسان في الناحية الثانية من الجمل ليعادله

[١]. ابن جبير: الرحلة، ص ٦٥

٢. ابن بطوطة: الرحلة، ص ٥٣، ابن جبير: الرحلة، ص ٦٩

٣. القاسم التجيبي: مستفاد الرحلة،ص ٢٠٩.

ولعل إقبال الحجاج على السفر من مواني‌ء البجة جعل بعضهم يتحرى عن الإحرام منها قبل انطلاقه [٣]، بالإضافة لحلقات النقاش والحوار الفقهي وكان بعض الحجاج الذين يطول بهم المقام في موانئ البجة يقوم بإمامة الناس والصلاة بهم سواءً أكانوا من العرب أو من البجة

الذين تحولوا للإسلام، ويخطب فيهم ويصلي بهم صلاة الجمعة [١]٦، ويستمر يصلى بهم إلى أن يحين وقت سفره إلى بلاد الحجاز [٢]، على أن إمامة الناس في الصلاة على النحو الذي ورد لم تكن تتم مبادرات من هؤلاء الحجاج والرحالة فحسب، بل غالباً ما كانت تتم بطلب ورغبة من البجاويين والحجاج أنفسهم [٣]، بل ربما دعا بعض هؤلاء الحجاج والرحالة ومن معهم من البجاويين من يرتضون دينه وعلمه لإمامتهم والدعاء لهم عند الشدة والملمات، ولاسيما أن بعض الحجاج كان يتعرض لكثير من الصعاب والمحن في سفره، وكثيراً ما كانت تُردَّدُ عبارات تدل على ذلك مثل قول أحد الحجاج الرحالة الذين تعرضوا لمثل هذه المحن: " افتقد منا شيخنا وسيدنا ورفيقنا للصلاة، فصلى بنا ما قدر، ثم لما سلم من آخر الصلاة دعا لنا دعاءً حسناً، وأمن الحاضرون، ثم دعونا أفذاذاً، وذرفت العيون ووجلت القلوب فاستجاب الله تعالى دعاء الجميع بمنَّه وفضله وحلَّ وثاقنا" [٤] . كذلك كان من جهودهم المباشرة في مجال نشر الدعوة الإسلامية في أوساط البجاويين إتاحة الفرصة لمن أسلم منهم للحج وأداء المناسك في صحبتهم والسفر معهم، وبخاصة البجة الذين يعملون في الموانئ، فكانوا بحكم قربهم من الحجاج يجدون منهم التشجيع على السفر معهم لأداء فريضة الحج، كما كانت تشجعهم كثرة المراكب البجاوية القادمة من بلاد اليمن وبلاد الهند . حيث كانت تمر أو ترسو جدة قبل مواصلة رحلاتها [١]٧ . كذلك كان تشجعهم زيادة أعداد المراكب الخاصة بالحجاج [٢]، حيث كان سبب زيادتها تُحَوَل إقليماً كاملاً من أقاليم البجة للإسلام، فأصبح أهل الإقليم يؤدون فريضة الحج شأنهم في ذلك شأن البجة الذين سبقوهم إلى الإسلام وإلى أداء فريضة الحج، وعنهم يقول ابن حوقل: " ويختص أهل تفلين [٣] بالإبل والبقر، ولا زرع لهم، فيهم مسلمون كثيرون ويصون على دينهم، يتاجرون ويسافرون إلى مكة " [٤]، وليس من المستبعد أن يكون تحول هذه المملكة إلى الإسلام قد تم في فترة مبكرة على يد التجار والرحالة وغيرهم من الفئات التي اعتادت على ارتياد تلك المناطق[٥].

---

١. ناصر خسرو: سفرنامة، ص ٧٣

٢. المصدر السابق، ص ٧٣

٣. القاسم التجيبي: مستفاد الرحلة، ص ٢١٤ – ناصر خسرو: سفرنامة، ص ٧٣.

٤. القاسم التجيبي مستفاد الرحلة، ص ٢١٤.

١. اليعقوبي: البلدان، ص ١٢٣

٢. المصدر السابق، ص ١٢٣

٣. تفلين: ليس من اليسير تحقيق موضوع هذه المملكة أو الإقليم، ولعلها تنسب إلى بلدة بافلا الحالية غربي مصوع .(مصطفى مسعد: المكتبة السودانية العربية، ص ٢٠)

٤. ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٥٧

٥. ابن سليم الأسواني: أخبار النوبة، عن المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ١٩٤.

٦. ابن الوردي: خريدة العجائب، ورقة ٥١.

ومهما يكن من أمر فإنه من الواضح أن أهل البجة بعامة وأهل عيذاب وسواكن [٦] بخاصة قد عرفوا الحج كفريضة إسلامية منذ وقت مبكر، كما عرفوا طريقهم إلى المشاعر المقدسة،وأصبحوا معروفين لدرجة أن خصص لهم رواق كان يعرف برواق أهل سواكن، ولا بد أن الحجاج البجاويين قد استفادوا كثيراً من التقائهم مع الحجاج الآخرين القادمين من كل مكان، مما مكنهم من الاستفادة من العلوم و المسائل الفقهية المختلفة التي كان يتداولها الحجاج، فضلاً عن استفادتهم من العلماء والفقهاء الذين كانوا يقيمون حلقات الدرس المختلفة في الحرمين الشريفين بمكة والمدينة.

هذا ويبدو أن الحجاج المارين أو المقيمين بالموانئ البجاوية كانوا ينظرون إلى البجة على اعتبار أنهم من المؤلفة قلوبهم، لذا كانوا يغضون الطرف أحياناً عن تصرفات بعضهم تجاه الحجاج خصوصاً في مسائل البيع والشراء على النحو الذي وردت تفصيلاته سابقاً، كما يبدو أنهم كانوا يغضون طرفهم عن بعض العادات أو السلوكيات التي يسلكها البجة خصوصاً فيما كان يتعلق منها بعاداتهم الاجتماعية، فضلاً عن تعديل سلوكهم وارتقاء تعاملهم مع الآخرين[١]. أما المساهمات غير المباشرة للحجاج والرحالة في مجال خدمة الدعوة الإسلامية فإنها تنحصر غالباً في توفير المعلومات الضرورية عن أهم الطرق المؤدية إلى الموانئ البجاوية، والمسافات الفاصلة بين هذه الموانئ وبين مدن جنوب مصر [٢]، مع بيان أنسب الوسائل التي تتفق مع تلك البيئة، حيث ذكروا أن الإبل تعتبر أهم وسيلة تتناسب مع المسافرين ؛ بسبب صبرها وقوة تحملها للعطش، خصوصاً في ظل ندرة المياه وقلة مواردها في المنطقة، هذا وقد استفادت القبائل العربية كثيراً من هذه المعلومات، فأصبحوا يتخيرون أنسب الإبل وأصحها [٣]، وأقصر الطرق وأكثرها أمناً للسفر لبلاد البجة .

كما قدمت هذه العناصر معلومات أخرى استفادت منها القبائل المهاجرة والدعاة وغيرهم، منها ما يتعلق بأماكن توفير المياه الصالحة للشرب عبر طرق القوافل، وأسماء أهم الآبار الموجودة على طول الطريق القاصد من أسوان وقوص على نهر النيل إلى الموانئ البجاوية مثل عيذاب وسواكن [١] ، هذا فضلاً عن المعلومات القيمة التي أوردوها عن أوضاع البجة الاجتماعية وعاداتهم وتقاليدهم، مثل التعريف بالنظام الاجتماعي الخاص بالتوريث عندهم، والذي يقضي بتوريث ملك البجة لابن البنت أو ابن الأخت دون ولد الصلب[٢].

وكانت القبائل العربية أكثر تلك العناصر استفادةً من المعلومات، فعملت على مصاهرة البجة وأقبلت على التزوج من بنات أعيانهم [٣]، مما أتاح الفرصة لدعوة البجة للإسلام على نحوٍ موسعٍ.

هذا وقد طال هؤلاء الرحالة والحجاج يؤدون واجباتهم في نشر الدعوة الإسلامية وسط البجاويين برغم المشاكل والصعوبات الكثيرة التي كانت تواجههم، والتي من أهمها ندرة المياه الصالحة للشرب في المنطقة سواءً في المراكز والنقاط البجاوية التي تمر بها القوافل، أو في الموانئ والمدن البجاوية على ساحل البحر الأحمر، السبب في ذلك يعد لقلة الأمطار في هذه المنطقة، كما يرجع إلى جفاف الآبار والأودية الموجودة في تلك المناطق، فكانت مشكلة عدم توافر المياه من أكبر المشكلات التي ظلت تواجههم، لذا كانوا يحرصون حرصاً شديداً على إكراء الجمال النشيطة التي تتحمل مشاق الطريق والعطش، وتتحمل أثقالاً إضافية من المياه الصالحة للشرب [١] ، أما في حال وصولهم للمدن الرئيسة

أو للموانئ البجاوية الواقعة على سواحل البحر الأحمر، فكانوا يعتمدون على المياه التي يجلبها البجة من خارج هذه المدن ويبيعونها لهم [٢]، لكن تلك المياه على غلاء ثمنها لم تكن مستساغة ؛ بسبب أنها ثقيلة على المعدة، وتشغلهاعن اشتهاء الطعام، وربما جلب إليها يسير من ماء المطر، لكنه مختلط في الغالب بأبوال الغنم، وسخن كأنه ماء الحمامات "[٣]، ومما يزيد هذه المشكلة تعقيداً أن تلك الموانئ كانت " أشد البلاد حراً، لا يكاد الإنسان أن يتنفس فيها إلا ويخيل إليه أن أحداً قد أمسك بأنفه، وكأنه النار. نعوذ بالله منها . تلفح وجه الإنسان فيها، ومن العجب أن ماء بحرها حار أيضاً يخيل إليك أنه سخن بالنار، حتى صار كأشد ما يوجد في الحمامات؛ وسبب ذلك شدة حر الشمس"[٤]، على أن أشد هذه الأخطار التي كان يتعرض لها الحجاج هو الخطر الصادر من بعض البجة الذين كانوا يكرون الجمال لهم نظير أجر معلوم متفق عليه، ذلك أن بعض هؤلاء كان يطمع في أكثر مما يتم الاتفاق عليه " فيسلكون بهم . أي بالمسافرين – غير طريق الماء، فربما يذهبون بهم إلى أكثر المناطق عطشاً، ومن ثم يحصلون على ما يخلفونه من نفقة أو سواها "[٥]، ويروى ابن حوقل في هذا الصدد أن بعض البجة قد قاموا في سنة أربع ومائتين للهجرة **بتوهان** عدد الحجاج القادمين من مصر، ثم قاموا بقتلهم إلا غلاماً صغيراً، بعد أن غلبوا رئيسهم الذي كان يُعرف بمرجب حيث بيّن لهم أن هنالك علاقات ومصالح تربطهم بهؤلاء المسلمين [١]٨، وحذرهم من مغبة فعلهم هذا، إلا أنهم قد امتنعوا عن سماع نصحه وتوجيهه، فقاموا **بتوهان** هولاء الحجاج في الصحراء حتى ماتوا عطشاً، وقد كانت حجتهم في ذلك أن هؤلاء الحجاج قد يشكلون خطراً عليهم ؛ بسبب معرفتهم بديارهم ومظان مياههم [٢]، وعلى الرغم من أن المسلمين قد أخذوا بثأر هؤلاء الحجاج من هؤلاء البجة الذين نقضوا الاتفاق الموقع معهم[٣] – والذي التزموا فيه بعدم المساس بالمسلمين الطارقين والمارين بديارهم، حجاجاً كانوا أو تجاراً أو رحالة أو غير ذلك – إلا أن هذه الحادثة تشير إلى حجم المخاطر التي كان يتعرض لها الحجاج المارون ببلاد البجة، أما الذين تقدر لهم النجاة من مثل هذه المحن، فإنه "يصل إلى عيذاب كأنه منشر من كفن، ففي مناظرهم المستحيلة وهيئاتهم آية للمتوسين" [٤].

وعلى أن تلك الصعوبات التي واجهت الحجاج والرحالة وغيرهم لم تقف عند ذلك الحد، بل نجد أنهم قد لازمتهم حتى في حالة سفرهم وعبورهم بالمراكب والسفن إلى سواحل الحجاز، فبالإضافة إلى العوامل الطبيعية المتمثلة في الرياح العاتية التي كانت تغير مسار السفن، وتهدد سيرها بالأمواج، فقد كانت هنا أيضاً الشعاب المعترضة التي تغير من حركة الموج وتؤدي إلى إغراق السفن بمن فيها في حال الارتطام بها[٥].

---

١. ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٥٠
٢. المصدر السابق، ص ٥٠
٣. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج١، ص ١٩٦
٤. انظر الصفحات التالية التصاهر بين العرب والبجة
٥. ناصر خسرو: سفرنامة، ص ٧٣

أحياناً يضطر الحجاج والمسافرون للعودة مرةً اخرى لميناء عيذاب بسبب تلك المخاطر [١].

ويبدو أن معاناة الحجاج من البجاويين وبخاصة أصحاب المراكب منهم كانت أكبر من معاناتهم من العوامل والظروف الطبيعية التي سبقت الإشارة إليها، والسبب في ذلك أن أصحاب المراكب كانوا يستغلون حاجة الحجاج وحرصهم على السفر لإدراك فريضة الحج، فيبالغون في المبالغ التي يطلبونها من الحجاج والرحلة إلي ميناء جدة، ثم إذا قبضوا الثمن مقدماً، شحنوا المراكب بالحجاج شحناً لدرجة يصعب فيها أن يتحرك الحاج أقل حركة حتى يصل إلي ميناء جدة على ذلك النحو، ولعل هذا الأمر هو ما دعا بعضهم لوصف هؤلاء البجة " بأنهم أمة لا أخلاق لهم ولا جناح على لاعنهم". [٢]

ثانيا أثرهم في انتشار اللغة العربية:

كان معظم البجاوية يتحدثون لغة خاصة بهم تعرف بالتبداوية [١]، كما كانت لبعضهم لغات أو لهجات يتحدثون بها غير التبداوية تشادية في مفرداتها وعباراتها وطريقة نطقها مع بعض لغات الحبشة [٢] وقد إنتشرت هذه اللغة المتشابهة للغات الحبشية في المناطق الواقعة في جنوب بلاد البجة المتاخمة لبلاد الحبشة [٣].

على أن تلك اللغة التي كانت يتحدث بها البجة لم تكن تخلو من بعض الألفاظ والعبارات العربية في الفترة التي سبقت وصول الإسلام إلى المنطقة حيث تسربت بواسطة التجار والقبائل العربية التي هاجرت إلى هناك في فترة مبكرة واستقرت في البلاد وصاهرت أهلها [٤]، وقد شمل هذا الأمر كثيراًمن اللغات الإفريقية المحلية التي ارتبط أهلها ارتباطاً قوياً بالعناصر العربية التي كانت تفد إلى مناطق الساحل الإفريقي وبخاصة المدن الإفريقية الواقعة على ساحل البحر الأحمر الغربية، ومما ساهم في تسرب بعض المفردات العربية للغات السكان في تلك المناطق التشابه الكبير في بعض التراكيب والضمائر وأسماء العدد، والتثنية، وقواعد الصرف والنحو والأصوات بين اللغة العربية واللغات السامية الأخرى التي يتحدث بها سكان تلك المناطق[٩]، إلا أن مدى توسع انتشار اللغة العربية كان محدوداً وانحصر في تسرب بعض المفردات في هذه المرحلة.

أما بالنسبة لبلاد البجة فبعد أن تعرف إليها المسلمون وتوطدت صلاتهم بها، وفتحت البلاد من خلال الوسائل المختلفة للعناصر والفئات الإسلامية التي دخلت في علاقات اجتماعية واقتصادية واسعة معهم، بدأت اللغة العربية تعرف طريقها إلى مواطنهم بشكل واضح، بيد أن تغلغلها واستيطانها في البلاد قد حدث ببطء شديد، كما أنها تأثرت باللغات المحلية التي كانت سائدة هناك في بداية الأمر خصوصاً فيما يتعلق بمخارج الأصوات، ونطق الكلمات، وذلك بخلاف الدعوة الإسلامية التي كانت قد قطعت أشواطاً كبيرة في الاستقرار والتوطن في البلاد، ولعل مرد ذلك الأمر يعود إلى عدة أسباب من

---

١. حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، ص ٥١

٢. اليعقوبي: البلدان، ص ١٢١

أهمها أن العناصر الإسلامية التي حملت الدعوة الإسلامية وبسط تعالم الإسلام بين السكان الوطنيين في تلك المناطق .

هذا وقد كانت أكثر المناطق البجاوية التي انتشرت فيها اللغة العربية هي المناطق التي حدث فيها احتكاك مباشر بين الجماعات الإسلامية العربية، من الرحالة والحجاج وبين قبائل البجة [٢]، وهي المناطق الحضرية المتمثلة في المدن الرئيسة الواقعة على طرق القوافل الرئيسة ومن أهمها صيحة وهجر والنماس، والمحدثة وغيرها، والمتمثلة كذلك في الموانئ الواقعة على ساحل البحر الأحمر ومن أهمها مدينتا سواكن وعيذاب . كما شهدت مناطق التعدين المختلفة احتكاكاً و تداخلاً بين مختلف العناصر الموجودة هناك،وأمكن من خلال ذلك تسريب كثير من المفردات والعبارات العربية للبجاويين العاملين في تلك المراكز.[١٠]

إلا أن ذلك لا يعني أن أنتشار اللغة العربية قد انحصر فقط في أوساط البجاويين المستقرين في المناطق الحضرية المشار إليها فحسب، بل إن بعض البجاويين الذين كانوا يسكنون في المناطق الصحراوية وفي الوديان البعيدة عن مناطق العمران قد عرفوا اللغة العربية وتسربت إليهم مفرداتها أما بواسطة التجار الذين يمرون بتلك المناطق في بعض الأحيان، أو بواسطة القبائل العربية التي آثرت الاستقرار في تلك المناطق [٢]،بل إن بعض الأقاليم البجاوية التي وصلت إليها تلك العناصر قد تعلم بعض حكامها اللغة العربية واصبحوا يتحدثون بها،بعدأن تركوا الوثنية واعتنقوا الدين الإسلامي [٣] .

ويمكن من خلال تتبع مسار اللغة العربية تبين عدد المظاهر الدالة على انتشارها وتوسع استخدامها في بلاد البجة جنباً إلى جنب مع اللغة البجاوية المحلية، ومن أهم تلك المظاهر ما يلي:

١- استخدام البجة الأسماء العربية ذات الصبغة الإسلامية الواضحة وذلك منذ فترة مبكرة قد تعود إلى ما قبل سنة ٢١٦هـ، وهي السنة التي وقع فيها عبد الله بن الجهم اتفاقية مع الملك البجاوي كنون بن عبد العزيز الذي يلاحظ من اسم أبيه مدى التداخل الذي حدث بين الوافد الإسلامي المحلي البجاوي[١][١١]ومثله الملك البجاوب على بابا، وغيرهم من البجاويين، مما يؤكد أن أسماء البجة قد استعربت إلى حدٍ كبيرٍ، وأضحت شديدة الارتباط بالثقافة الإسلامية [٢].

٢-تمثل أسماء المدن البجاوية صورة أخرى من صور استخدام اللغة العربية مثل مدن سواكن، وصيحة وهجر، والمحدثة وعذاب، والنماس وغيرها من المدن الأخرى التي ظهرت فيها العربية بشكل جلى [٣].

---

١. المصدر السابق، ص ١٢٢
٢. ابن بطوطة: الرحلة، ص ٣٤٥.
٣. ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٥٧
١. ابن سليم الأسواني: أخبار النوبة والبجة، عن المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ١٩٥
٢. الطبري: تاريخ الأمم والملك، ج٩، ص ٢٠٣ – ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص ٩٥
٣. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج١، ص ٢٠٢
٤. اليعقوبي: البلدان، ص ١٢٠
٥. المسعودي: مروج الذهب، ج ٣، ص ٤٦

٣- حملت مراكز التعدين عن الذهب التي توسعت وازدادت أعدادها بشكل كبير في المنطقة أسماء عربية واضحة الدالة، مثل جبل صاعد، ودخم، وبطن وماء الصخرة، والأخشاب، وعربة بطحاء، والبضة وقير أبي مسعود، وميزاب (فهذه المعادن التي يصل إليها المسلمون ويقصدونها لطلب التبر)، ويضاف إلى تلك المراكز الإسماء التي أطلقت على أنواع الذهب نفسها ومنها العروس، والخصوم، وكوم الصابوني، ومكابر وغيرها [٤].

ومثل الذهب قسم الزمرد إلى أنواع حملت أسماء عربية واضحة مثل المرّ، والبحري، والمغربي،والأصم [٥].

٤-وكما أعطت البجاويين ومدنهم ومراكز التعدين المنتشرة في بلادهم مؤشرات مهمة على تسرب الكثير من مفردات اللغة العربية إلى بلادهم، أعطت الأسماء التي أطلقت على الآبار والمراكز المهمة الواقعة على الطريق الواصل بين مدن مصر الجنوبية ومدن الساحل البجاوي مؤشرات مهمة كذلك، فمن الأسماء التي حملتها تلك المراكز الآقار الخبيب وحجاج، وشاغب، وأمتان وغيرها، ومثلها حملت المراسي التي تبحر منها السفن التجارية أسماء عربية بينة، مثل مراسي الجدير، والمربوطة، والواسعة،وخلافها [١].[١٢]

ومن الملاحظ أن هذه الأسماء التي أطلقت سواء على مراكز التعدين، أو الآبار، أو المراسي أو غيرها قد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالبيئة المحلية، وبالأعمال التي ارتبطت بحركة التجار والمهاجرين و الحجاج وغيرهم، مما يؤكد مدى تأثيرهم الواضح على البجاويين في هذا المجال.

٥- توسع انتشار اللغة العربية في بعض الأقاليم البجاوية، خصوصا أن بعض حكام تلك الأقاليم قد تحولوا للإسلام ثم تعلموا اللغة العربية تبعاً لذلك التحول، يقول ابن حوقل عن بعض جماعات تلك الأقاليم " ولهم ملك مسلم يتكلم بالعربية " [٢].

٦- لجأ بعض قادة المسلمين لاتخاذ الحيلة في قتال البجة يؤكد انتشار اللغة العربية في أوساط عامة البجة، ومن ذلك الرقاع التي كتبها محمد القمي، ورفعها على أسنة الرماح قبل مواجهته لهم حيث كتب فيها " هذه كتب أمير المؤمنين إليكم معاشر البجة "[٣]، ومهما تكن النتائج التي

تحققت من هذه الحيلة، إلا أنها تدل دلالة واضحة على تعلم عددٍ غير قليل من البجة اللغة العربية [١].[١٣]

٧- الآثار والحفريات التي تمت في بلاد البجة حيث عثر على شواهد تحمل التاريخ الهجري، والأسماء العربية وذلك في منطقة خور نبت الواقعة مسافة سبعين ميلاً غربي ميناء سواكن، يعود تاريخها إلى

---

١. ابن جبير: الرحالة: ص ٦٥

٢. صور الأرض،ص ٥٧

٣. المصدر السابق، ص ٥٤،٥٥

١. مصطفى مسعد: المكتبة السودانية، ص ٤٩

٢. المصدر السابق

٣. ابن سليم الأسواني: أخبار النوبة والبجة، عن المواعظ والاعتبار ج ١، ص ١٩٦

فترة مبكرة ربما ترجع إلى منصف القرن الثاني الهجري، وهي بذك تدل على أن اللغة العربية قد عرفت طريقها لبلاد البجة في فترة تاريخية متقدمة جداً، ويرجع أحد الباحثين أن تلك الجهود قد بذُلت من بقايا الأمويين الذين لجأوا إلى تلك البلاد إثر قيام الدولة العباسية [٢].

وإذا كانت تلك المظاهر قد دلت دلالة واضحة على جهود الرحالة والحجاج في نشر اللغة العربية في بلاد البجة، فإنه من الواضح كذلك أن بعض هؤلاء الحجاج والرحالة وغيرهم من العناصر العربية المهاجرة قد تعلموا اللغة البجاوية حتى يسهل لهم التعامل معهم خصوصاً بعد أن استقروا في مناطق مختلفة من بلادهم ، وبعد أن أضحت لهم مصالح كثيرة هناك، هذا فضلاً عن رغبة بعض هؤلاء في التأثير على البجاويين ودعوتهم للإسلام، ومما يؤكد هذا الأمر ما ذكرته المصادر من أن رجلين من سكان مدينة جدة هما زكريا بن صالح الخزومي، وعبد الله بن إسماعيل القرشي قد قاما بترجمة الاتفاقية التي وقعها عبد الله بن الجهم مع ملك البجة كنون بن عبد العزيز للغة البجاوية [٣] . وما ذكرته تلك المصادر أيضاً أن أحد العارفين باللغة البجاوية من المسلمين قد قام بترجمة الحوار الذي دار بين الخليفة المتوكل وبين على بابا الملك البجاوي إبان زيارة الأخير لبغداد أواخر سنة ٢٤١ هـ .

على أن اللغة العربية التي انتشرت وسط البجاويين لم تكن تخلو من بعض الاختلافات الشكلية بين اللهجات العربية القبلية، ويظهر أن مرد هذا التعدد يرجع إلى أصولها القديمة التي عاشت بها القبائل العربية في الجزيرة العربية [١٤(١]، بيد أن هذه الاختلافات الشكلية لا تعدو أن تكون تغييراً طفيفاً في النطق أو تغييراً لبعض الحروف والحركات بالإبدال أو الحذف، ويمكن حصرها في أربع مسائل [٢]، هي تغيير نطق بعض الحروف، وتغيير الحركات وحذف بعض الأصوات، وتغيير مدلول الكلمة، بيد أن الفروق لا تمثل اختلافاً جوهرياً يحول دون قيام ثقافة ذات مضمون واحد وجوهر واحد،إضافة إلى كونها فوارق لا تمثل حاجزاً لغوياً يقف حائلاً دون وحدة الثقافة، والدليل على ذلك ما يشاهد اليوم في مناطق البجة المختلفة، فرغم ما بين اللهجات العامية من فوارق في النطق، والحركات، والأصوات،وأحياناً تغيير مدلول الألفاظ والكلمات إلا أن كل البجاويين تنتظمهم ثقافة واحدة وهي الثقافة الإسلامية العربية التي تجذرت في حياتهم بشكل كبير، على أن اللغة العربية المستخدمة لم تسلم بدورها وبرغم نفوذها وهيمنتها من تسرب بعض المفردات البجاوية عليها وتنحصر في أسماء بعض الأداوت والصناعات التي لم يعرفها العرب في مواطنهم التي قدموا منها إلى هذه المناطق.

ثالثاً: انتشار الثقافة الإسلامية:

لم يمكن انتشار استخدام اللغة العربية في بلاد البجة وتوسع مداها هو الأثر الثقافي الوحيد الذي أحدثته العناصر أو الفئات العربية المختلفة من الرحالة والحجاج وغيرهم في البلاد، بل قد تلازم مع ذلك تسرب

---

١. المصدر السابق

٢. ابن سليم الأسواني: أخبار النوبة والبجة، عن المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ١٩٦.

كثير من المفاهيم والعادات والتقاليد العربية الإسلامية إلى أوطانهم ؛ لدرجة أن بعض المؤرخين شبهوا البجاويين بالعناصر العربية المشار إليها [١٥(١)]، خصوصاً أن أجيالاً من البجة المولدين أو البجة المستعربين قد تمثلوا تلك العادات والتقاليد بشكل واضح وجلي، وعملوا على نقلها وبسطها في مختلف قطاعات مجتمعهم . ومن الواضح أن تأثير الفئات العربية التي داخلت البجاويين في هذا المجال كانت من تأثير البجة عليهم، وذلك بسبب أن الآخرين لم تكن لهم حظوظ كبيرة في التمدن والرقي فهم في غالبهم " بادية أغنام متوغلون في الجبال والآجام في عددٍ لا يحاط به " [٢] وهذا التوغّل في الأماكن البعيدة عن المدن والعمران وأماكن تجمع الناس قد ساهم إلى حد كبير في عزل بعضهم عن الاحتكاك بأي مجتمعات أخرى، مما حرمها من إحداث أي تأثير أو تأثير بتلك المجتمعات سواءً بتمثل عاداتهم وتقاليدهم أو بغير ذلك بالإضافة إلى ذلك فإن طبيعة البجة أنفسهم لم تمكنهم من التفاعل مع الآخرين بسبب ميل معظمهم للعزلة والانفراد والابتعاد عن الآخرين [١٦(١)]، كذلك من الأسباب التي جعلت البجة أكثر تأثيراً وأقل أثراً في القبائل العربية التي استقرت في أوطانهم تفوق ثقافة وعادات هذه القبائل بسبب التعاليم الإسلامية التي تمثلوها، وبسبب الاحتكاك والخبرات والمؤثرات التي تعرضوا لها قبل استقرارهم في بلاد البجة [٢].

ومع التصاهر والتداخل الذي تم بين هذه العناصر الوافدة وبين البجاويين في أماكن التعدين عن الزُمرد والذهب في وادي العلاقي، أو في الموانئ البجاوية مثل عيذاب وسواكن، أو في الأسواق والمراكز التجارية الواقعة على طول الطريق الذي يربط مدن جنوب مصر مثل أسوان وقوص وغيرها بالساحل البجاوي، وفي الأماكن الأخرى التي توسعت فيها علاقات المسلمين بالبجة، تسربت كثير من المؤثرات الثقافية للبجاويين، ولا سيما أن بعض هذه المؤثرات كانت تتمثل في بعض العادات التي أضحت بعد مجيء الإسلام يخلو كثير منها من العادات القبيحة الضارة، بسبب أن الإسلام قد حرَّم على العرب من عادتهم ما كان مخالفاً للدين والأخلاق والمروءة، مثل وأد البنات، وشرب الخمر، والميسر ونحوها [٣]،في حين اتجه إلى بعض العادات والتقاليد التي تشوبها بعض الشوائب فهذبها ونقاها من تلك الشوائب ومن ذلك الدخن، ووجد عادات أخر أبقى عليها أشاد بها مثل إكرام الضيف، ونصرة الضعفاء والمظلومين والتخلف بمكارم الأخلاق [١٧(١)].

---

١. االاصطخري: مسالك الممالك، ص ٣٥، ليدن، ١٩٢٧

٢. ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٥١.

١. الإدريسي نزهة المشتاق، ج١، ص ٢٧

٢. إدريس الحسن: البجة في شرق السودان، ص ٥٩

٣. البخاري (محمد بن إسماعيل): مختصر صحيح البخاري، ص ٦٦٣، شرح مصطفى البغا، دار اليمامة للنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٣هـ.

١. المصدر السابق: ص ٦٦٣ وما يليها

٢. توماس ارنويد: الدعوة إلى الإسلام، ص ٣٣٩ – عبد العزيز بن راشد العبيدي: وسائل انتشار الإسلام في إفريقيا، ص ٤٥

والدارس للمنهج الذي تشربت به المؤثرات الثقافة الإسلامية في القارة الإفريقية بعامة وفي بلاد البجة بخاصة يلحظ حقيقتين مهمتين هما:

أما الحقيقة الأولى فتتمثل في التزام العناصر العربية المهاجرة أو المارة ببلادهم بالتقاليد المستمدة من التعاليم الإسلامية، فكان هذا الأمر عنصراً مهما من عناصر تسرب تلك المؤثرات إلى البجاويين وغيرهم [٢].

أما الحقيقة الثانية فهي ملاحظة أن هذه العناصر الوافدة لم تكن ترمي لتعريب السكان الأصليين الوطنيين في بلاد البجة أو في غيرها بقدر ما السكان كانوا يهتمون بدعوتهم للإسلام في حين وحَّدها بل إن كل أو معظم الشعوب والقبائل الإفريقية كانت تلتزم به، يقول ابن سليم الأسواني في معرض حديثه عن قبائل البجة: وهم بادية يتبعون الكلأ حينما كان الرعي،بأخبية من جلود، أنسابهم من جهة النساء، ولكل بطن منهم رئيس، وليس عليهم متملك، ولا لهم دين،وهم يورثون ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب ويقولون: إن ولادة ابن الأخت وابن البنت أصح، وأن يكون من زوجها أو من غيره فهو ولدها على كل حال " [٣] والواقع أن هذا النظام الاجتماعي على مخالفته لتعاليم الإسلام إلا أن كثيراً من القبائل العربية المهاجرة قد استفادت منه، وصاهرت السكان الوطنيين، فكان ذلك سبباً في تحولهم للإسلام على يد أبناء بناتهم، وهم الذين عرفوا بالمولدين [١] [١٨]، وبالتدريج ومع مرور الزمن أضحى البجاويون يتخلون عن هذه العادات والتقاليد وأصبحوا يتمثلون النظام الإسلامي في هذا المجال [٢].

ظلت كثير من عاداتهم وتقاليدهم على ما هي عليه برغم إسلامهم وهذا ما عبر عنه أحد الجغرافيين في معرض حديثه عن البجة حين قال: " فجرت أحكامهم على سنن كانت لهم جاهلية إلى بعض أحكام يستعملونها إسلامية " [٣]

هذا وقد أضحى البجة يتخلون عن كثير من العادات والتقاليد القديمة التي كانت سائدة في أوساط مجتمعاتهم، والتي من أهمها وأبرزها نظام التوريث والذي عرف بنظام الأمومة حيث كان يقضي بأن يرث ابن أخت الرجل المتوفى أو ابن بنته دون ولده، سواء أكان هذا الميراث ملكاً، أو تجارة،أو مالاً أو غيره، حيث إن ابن الأخت أو البنت في زعمهم أصح في النسب من الابن، على أن هذا التقليد لم يكن يخص قبائل البجة وحدها ومن المؤثرات الثقافية الواضحة في هذا المجال بسبب تحول البجة للإسلام واختلاطهم بالمهاجرين العرب تغير نظرتهم للمرأة حيث كان الاختلاط بين النساء والرجال شائعاً عندهم لدرجة كبيرة حتى أن أحد المؤرخين وصفهم بأنهم " أقل الناس غيرة ونحوها على النساء "[٤]، ثم

---

٣. ابن سليم الأسواني: أخبار النوبة، عن المواعظ والاعتبار، ج١،ص ٢٠٢

١. انظر ربيع الحاج: معاهد البقط وآثارها على بلاد النوبة، ص ٢٧٥ – ٢٧٩

٢. إدريس سالم الحسن: البجة في شرق السودان، ص ٥٩.

٣. ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٥١

٤. الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص ٢٨٦.

تغير ذلك الوضع فأصبحت العلاقة بين الرجال والنساء تحكمها قيمة الشرف المستمدة من الدين وأصبحت المرأة عند البجة كزوجة أو أم أو أخت لها عالمها الخاص محمية من الاشتراك والظهور في عالم الحياة العامة حيث الرجال عموماً والغرباء خصوصاً، وإن كانت لها مشاركات فتنحصر في بعض شؤون بيتها مثل جلب الماء، وبعض المهام المنزلية الأخرى التي لا تتطلب ابتعادها عن مسكنها كثيراً ولأوقات طويلة، كما أضحى الرجل البجاوي غير مسموح له عرفياً بالبقاء في عالم النساء نهاراً،بل لقد تعدلت الأوضاع في هذا الجانب الاجتماعي كثيراً لدرجة أنه لقد كان هنالك أعمال مشتركة بين الرجال والنساء حتى في مجال الزراعة والرعي، حيث انحصرت مسؤوليات المرأة عند البجة في منزلها وواجباته من أعداد الطعام ورعاية صغارها وغير ذلك [١].[١٩]

وتبعاً لهذا التغير في النظرة للمرأة تغيرت مفاهيم وعادات عربية أخرى مثل ما ذكره أحد المؤرخين حين قال: "وليس منهم رجل إلا منزوع البيضة اليمني، وأما النساء فمقطوع أشفار فروجهن " [٢]، والسبب في ذلك كما يقول المصدر نفسه " أن ملكاً من الملوك حارب البجة ثم صالحهم واشترط عليهم قطع ثدي من يولد لهم من النساء، وقطع ذكور من يولد من الرجال، وأراد بذلك قطع النسل منهم، فوفوا بالشرط وقلبوا المعنى فجعلوا قطع الثدي للرجال والفروج للنساء" [٣].

وبالرغم من أن المرء يشك في صحة هذه الرواية، إلا أنها تؤكد شيوع هذه العادة في وسط المجتمع البجاوي.

لكن بسبب احتكاكهم بالقبائل العربية وبسبب بعض المؤثرات الثقافية الإسلامية إليهم تخلى بعضهم عن تلك العادات والمورثات الغربية، وحل ذلك الختان السني المعروف للأولاد والبنات، فأصبح يتم ختان الطفل البجاوي عادة في عامه الأول أو الثاني مثلما تفعل القبائل العربية من حولهم [١][٢٠]، أخا ختان الفتيات فيبدو أن تأثيرهم بالثقافة الإسلامية أو بتعاليم الإسلام كان قليلاً حين كان هنالك نوعان من الختان، الأول وهو الختان السني، والذي كان غالباً ما يتم وسطط البجاويين الذين يسكنون في المدن وفي المناطق الساحلية، أما النوع الثاني فهو ما يعرف بالختان الفرعوني [٢]، ويختتن بهذه الطريقة عادة الفتيات من سن السادسة إلى الثامنة، ويبدو أن البجة قد تأثروا في هذا الجانب بالمؤثرات المصرية الفرعونية، حيث كان البجة على صلات دائمة بمصر منذ أقدم العصور [٣].

أيضاً تغيرات بعض مفاهيم البجة وبعض عاداتهم التي تتصل بالولادة، حيث كانوا يعمدون في حالة قدوم مولود جديد على الأسرة إلى إيقاد نار لمدة أربعين يوماً أمام المنزل أو الدار التي ولد فيها الطفل، وإذا تعذر إيقاد النار يكتفون بإيقاد مصباح صغير أمام الدار، ويزعمون أنهم بفعلهم هذا إنما

---

[١]. إدريس سالم الحسن: البجة في شرق السودان، ص ٦٠

٢. ابن سليم السوداني: أخبار النوبة، عن المواعظ والاعتبار، ج١، ص ٢٠٢

٣. المصدر السابق، ج١،ص٢٠٢

[١]. اليعقوبي: كتاب البلدان، ص ٢١٩

٢. المرجع السابق، ص ٤٣

٣. الواقدي: فتوح الشام، ص

يطردون الجن عن الأم التي تكون في مدة نفاسها عرضة لأن تتأذي بالجن وبغيره،وبعد ولادة الطفل مباشرة تخرج النساء اللاتي ساعدن الأم في الولادة من الداورمعهن المشيمة، والخرق الملوثة ويمشين مساحة حتى إذا وصلن إلى أقرب شجرة ألقوها في وسطها، وهن ينشدن ويغنين بعض الأناشيد والأغاني في الذهاب والإياب إذا كان المولود ذكراً،أما إذا كان المولود أنثى فإنهن يذهبن ويعدن صامتات، وبهذه الطريقة يسهل الإعلان عن نوع المولود من غير حاجة إلى أي إعلان آخر[١][٢١]، على أن بعض الحماعات الجاوية كانت تخالف ذلك فإذا كان المولود أنثى احتفلوا به وفرحوا به فرحاً عظيماً، أما إذا كان المولود ذكراً فيقوم بعض النساء بقتله وحجتهم في ذلك أن الأنثى أفضل وأبر من الذكر، يقول ابن سليم الأسواني في معرض حديثه عن بعض نساء البجة،:" فإذا ولدت إحداهن جارية استحيينها وإن ولدت غلاماً قتلته، ويقلن إن الرجال بلاءً وحرب" [٢]. وبفضل الجهود التي بذلها الرحالة من الحجاج والدعاة تسربت المؤثرات الإسلامية إلى حياة البجة وتغيرت كثير من هذه العادات والمفاهيم، فأضحى البجاوي بدلاً من البقاء في خيمته أو داره أو في أي مكان آخر بحيث لا يرى مولوده إلا بعد مرور ثلاثين يوماً من الولادة – يقوم بترتيب أمورد ودعوة أصحابه وأقربائه للعقيقة التي يولم فيها الغالب بشاة أو شاتين، وأصبح الوالد ينطق بلفظ الجلالة أو يكبر عند الذبح بدلاً من نطقه باسم الطفل المولود بحسب ما كان يتم سابقاً [٣].

كذلك من العادات التي تغيرت عن البجة بهذا التواصل مع العناصر المشار إليها تغير العادة التي كانت سائدة عندهم من تسمية بعض قبائل البجة جميع رجالها ونسائها باسم واحدٍ [٤]، ثم تعدل هذا الأمر وأضحى للرجال أسماؤهم الخاصة بهم وللنساء أسماؤهن الخاصة بهن، بل اتخذ بعض البجة أسماء ذات صبغة عربية إسلامية واضحة [١].[٢٢]

ومنهم أقوام كذلك كانوا يقلعون ثناياهم من فوق ومن أسفل، ويقولون لا يكون لنا أسنان كأسنان الحمير، وينتفون لحاهم [٢]، ثم قل هذا الفعل عندهم بعد أن انفتحوا على المسلمين [٣]، ومن العادات التي تخلى عنها البجة بفضل احتكاكهم بالعناصر العربية المستقرة في أوطانهم، تخليهم عن ظاهرة العري التي كانت منتشرة عند بعض القبائل البجاوية، أو اتخاد بعضهم أخبية من جلود في أحسن الأحوال ليستتروا بها، فبدؤوا بدلاً من ذلك يتزيون بزي العرب الذي تميزه العمامة، ولا يستبعد أن يكون تأثير البجة في هذا المجال بسبب احتكاكهم بالتجار الذين ظلوا يفدون إلى بلادهم باستمرار، خصوصاً التجار المغاربة حتى شبههم أحد المؤرخين من كثرة لبسهم سراويل ونعلات المغاربة بالمغاربة أنفسهم،

---

[١]. محمد عوض: محمد: السودان الشمالي، ص ٤٢

٢. ابن سليم الأسواني: أخبار النوبة، عن المواعظ والاعتبار، ج١، ص ١٩٤

٣. محمد عوض محمد: السودان الشمالي، ص ٤٣

٤. ابن سلمى الأسواني: أخبار النوبة عن المواعظ والاعتبار.

[١]. انظر الملاحق عهد عبد الله بن الجهم لكنون بن عبد العزيز ملك البجاة

٢. اليعقوبي: كتاب البلدان، ص ٢١٩

٣. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج١، ص ٢٠٢

٤. بيبرس الداودار: زبدة الفكرة، ص ١٨١

ويبدو أن الخلفاء والحكام والولاة كانوا يشجعون التجار والرحالة والدعاة وغيرهم للمساهمة في نقل تلك المؤثرات بعد أن يقدموا الأسوة التي يحتذى بها، ومن أبرز الأمثلة الدالة على ذلك إهداء الخليفة العباسي المتوكل الملك البجاوي على بابا عمامة سواء إبان زيارة الأخير لبغداد سنة ٢٤١ هـ [٤]، كما نشر التجار هداياهم التي يقدمونها للأهالي وللوطنيين في المنطقة عادة تغطية الرأس فأصبح البجاوي يحرص على لبس طاقية من القماش الأبيض على رأسه، تلف عليها خرق صغيرة من القماش الأبيض فتغطيها شكلاً، تشبها بالعمامة العربية المعروفة .[٢٣]

أما نساء البجة فقد اتجهن كذلك إلى اتخاذ بعض الملابس القريبة من الملابس التي كانت تعرفها المرأة في الجزيزة العربية مثل السروايل الفضفاضة، بالإضافة إلى اتخاذهن الطرح وغيرها مما يستخدم في تغطية الرأس والوجه [٢].

ولعل هذا السلوك الذي طرأ على البجاويين هو الذي دفع بعض المؤرخين المسلمين إلى تشبيههم بالعرب حيث أن أنهم أشاروا إلى أن البجة كانوا يقلدون العرب في عاداتهم ولباسهم ويتزيون بزيهم [٣].

أما فيما يتعلق بالطعام والأكل وما إليه فقد كان للبجة عادات غريبة في هذا المجال، منها أن " مياسيرهم لا يرون أكل الصيد ولا مخالفة آكله ولا استعمال آنية من استجاز ذلك واستحله، ولا يحلبون فيها ولا يشربون" [٤]

كما كانوا يحرمون بعض الفواكه والخضر فلا يأكلونها [٥]، في حين يحرم بعضهم الآخر لحم الغذلان بالرغم من كثرة توافرها في بلدانهم [٦].

بتحول البجة للإسلام تغير الكثير من هذه العادات، فأصبح اللحم الذي كانوا يحرمونه وجبة أساسية عندهم بالإضافة إلى الخبز واللبن [٧]، ويبدو أن ذلك الأمر قد عاد إلى البجة بفوائد صحية وغذائية كثيرة فيصفهم ابن سليم الأسواني بقوله: " وغذاؤهم اللحم وشرب اللبن، وأبدانهم صحاح وبطونهم خماص، وألوانهم مشوبة بالصفرة "[١]٢٤، ويبدو أن تحريم البجة لبعض الأطعمة مثل اللحوم وغيرها يعود لأسباب دينية قديمة بدليل تخليهم عنها حال دخولهم في الإسلام. على أن هذه العادات والتقاليد التي اكتسبها البجة من خلال صلاتهم بالمسلمين المهاجرين لم تقف عند هذا الحد، بل

---

١. بوركهات: رحلات بوركهات ص ١٢٤.

٢. عبد الله عبد الرحمن: العربية في السودان، ٢٢

٣. الاصطخري: مسالك البلدان، ص ٣٥

٤. ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٥٦

٥. الاصطخري: مسالك الممالك، ص ٣٥

٦. ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٢٥٥

٧. ابن سليم الأسواني: أخبار النوبة، عن المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٢٠٢

١. المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٢.

٢. ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٥٥

٣. ابن جبير: رحلة بن جبير، ص ٦٨ وما بعدها

٤. ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٥٥

انسحبت كذلك على حياتهم العامة فأصبحت أعداد كبيرة منهم تستقر في المدن والحواضر بدلاً عن سكنهم في الجبال البعيدة والأودية النائية [٢]، ولا سيما أن عدداً منهم قد ارتبط بأعمال تتطلب بقاءهم في المدن والموانئ مثل بيع الماء للحجاج والرحالة، وإكراء الجمال لهم، والعمل في تحميل البضائع للتجار المارين بتلك الموانيء [٣]

بالإضافة إلى ذلك فقد اكتسب البجة عادات عربية أخرى في مجالات أخرى منها تحولهم في القتال من استخدام الإبل إلى استخدام الخيل التي لم يكونوا يعرفونها قبل أن تتقوى صلاتهم بالمسلمين، حيث كانوا يستخدمون الإبل ويقاتلون على ظهورها (بالقسي والسهام المسمومة والحراب بغير درق "[٤]، كما تحولوا لاستخدام السيوف، وأصبحوا في فترة وجيزة، مهرةً في استخدامها والقتال بها، كما تغيرت ملابسهم الحربية تبعاً لذلك التغير فبدلاً من لباسهم الجلود والعصابات الصفراء وغيرها، أصبحوا يلبسون " السراويلات المفتحة الطوال، ونعالاً كنعال المغاربة" [١].[٢٥]

على أن هذا التوسع الذي شهدته وتوسعت فيه الثقافة الإسلامية في بلاد البجة سواء في مجال المعاملات والآداب أو العادات والتقاليد الاجتماعيه،لا يعني أن الثقافة الإسلامية قد قضت تماماً على كل المورثات الثقافية البجاوية، لأن ما حدث كان نوعاً من التأثير والتأثر حيث تأثرت كذلك بعض العناصر العربية ببعض العادات والتقاليد البجاوية المحلية وبخاصة تلك التي لا تتعارض مع تعاليم الإسلام.

نتائج الدراسة:

١- إن الرحالة من العرب المسلمين قد عرفوا بلاد البجة ومنطقة وادي النيل قبل فترة طويلة منذ القرن الأول الهجري وليس كما يدعي بعض الرحالة الغربيين أنهم أول من عرف تلك المناطق وكتب عنها.

٢- إن هؤلاء الرحالة قد ساهموا مساهمة كبيرة في تحول البجة للإسلام واعتناقهم له.

٣- إن المعلومات الجغرافية والتاريخية المهمة التي تضمنتها كتاباتهم قد ساهمت في التعرف ببلاد البجة ومنطقة شرق السودان بشكل لم يكن متوافراً لدى العالم المعروف في ذلك الوقت.

٤- إن إسهامات هؤلاء الرحالة ما زالت في حاجة إلى الدراسة والتحليل والاستفادة منها في مختلف المجالات.

٥- إن المعلومات الدقيقة التي وردت في كتاباتهم ستفيد كثيراً في تصحيح كثير من المعلومات والمفاهيم التارخية المغلوطة التي راجت وأضحت كأنها مسلمات.

---

١. المصدر السابق، ص ٥٨

المصادر والمراجع

- ابن عبد الحكم: فتوح مصر
- البلوي: سيرة أحمد بن طولون
- بيبرس الداودار: زبدة الفكرة
- ابن جبير: الرحلة
- ابن الوردي: فريدة العجائب، ورقة ٢٣
- القاسم التجيبي: مستفاد الرحلة
- ابن بطوطة: الرحلة
- ناصر خسرو: سفرنامة
- اليعقوبي: البلدان
- مصطفى مسعد: المكتبة السودانية العربية
- ابن حوقل: صورة الأرض
- ابن سليم الأسواني: أخبار النوبة، عن المواعظ والاعتبار، ج ١
- المسعودي: مروج الذهب، ج ٣
- الحميري: الروض المعطار، ص ٢٨٤
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٧
- المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج١
- ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١
- عبد المجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية في السودان
- حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا
- الطبري: تاريخ الأمم والملك، ج٩، ابن الأثير: الكامل، ج٥
- الاصطخري: مسالك الممالك، ، ليدن، ١٩٢٧
- الإدريسي نزهة المشتاق، ج١
- إدريس الحسن: البجة في شرق السودان
- البخاري (محمد بن إسماعيل): مختصر صحيح البخاري، شرح مصطفى البغا، دار اليمامة للنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٣هـ.
- توماس ارنويد: الدعوة إلى الإسلام، عبد العزيز بن راشد العبيدي: وسائل انتشار الإسلام في إفريقيا
- ربيع الحاج: معاهد البقط وآثارها على بلاد النوبة
- الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر
- الواقدي: فتوح الشام.
- محمد عوض: محمد: السودان الشمالي
- بيبرس الداودار: زبدة الفكرة
- بوركهات: رحلات بوركهات
- عبد الله عبد الرحمن: العربية في السودان
- ابن بطوطة: تحفة النظار